العودة الى البيت

قصة بقلم سليمان فياض

كان « محمد بن ابراهيم » جالسا ، يحتضن ساقيه بكفيه ، ويؤرجح نفسه امامـا وخلفا ، مستسلمـا للسأم والكسل .

أخذ الرجال يفرسون المجاريف في الخنادق ، ويرفعونها ، قاذفين بالرمال على الجانبين . حفنات من الرمال الرطبة الساخنة ، لا تثير كثيرا من الغبار ، وبينها اطراف مهترئة ، من جذور الاشجار الفواحة الرائحة . بينهم ريفيون وعمال وموظفون من الصعيد الاعلى ، والصعيد الاوسط ، والدلتا ، من المدن والقرى ، والكفور والنجوع . في تلك الساعة لم يكونوا يفنون كعادتهم حين يبنون بيتا ، او يحفرون ترعة ، او يقومون بعملية حسابية ، في ترتيل منغم . كانوا يستعيدون بالعمل روحهم المعنوية ، يبتعدون بأنفسهم عن تأمل ما حدث . اطلاق النار قد توقف . المسافة ، بين هذا المعسكر والعدو ، عارية تقريبا من اية ذات خطر ، لن يجازف العدو بالاستمرار في الزحف ، وايقاع نفسه في شبكة معقدة من الترع والمصارف والمدن والقرى ، تخور فيها قواه . حدث ذلك في النهاية لجيش نابليون . لا قبل له باحتلال غير الصحراء ، والوقوف عند مواقع واقية . لكنه قد يقوم بغارة أخرى . لذلك ينبغي ان تكون هنا خنادق . طار الطيران ولم يعد . بل قتل اكثره خنقا ، وتدحيا قبل ان يحلق في الاعالي ، ولم تبق سوى الارض ، وهذه الخنادق في الرمال .

بغير كلمات قليلة لا يتحدث الرفاق . ابدا لا يضحك احدهم او يغني . عادوا الى صدورهم يأكلونها عشاءهم . شأن الصيادين في البحر المحمل الواسع الذي اختفت احياؤه ، او في مستنقع شحت قيعانه بالاسماك . تزايد عطفه وفساده بشحوم لفظتها السفن المبحرة ، وحملتها مياه البحر المالحة . شأن الفلاحين الذين راحوا يجمعون بصعوبة حبات البطاطس ، من أرض عطشت كثيرا ، وافتقرت الى السماد . لكنهم جميعا يعملون ، ماذا يوسع الانسان ، حتى في هذه الظروف السيئة ، غير ان يعمل ، ولو كان عملا بغير طائل ، لينقذ ما بقي من روحه .

تحت الاشجار السمهرية السامقة كالنخيل ، الظليلة بازدحامها ، أنجز الرفاق العائدون كثيرا من الخنادق ، في اشكال متعرجة ومتقاطعة:

« الآن فقط نبدأ في حفر الخنادق » .

وبدت الخنادق لعينيه ، البداية الاولى لكل شيء . البداية التي كان ينبغي ان تكون مقدرة وموجودة ، منذ سنوات بعيدة .

خلال الاسابيع القليلة الماضية ، كانوا يعودون من سيناء ، بدون مدرعاتهم تقريبا ، سائرين على اقدامهم يدفعهم الجوع والعطش صوب النهر ، يقاومون الموت صبرا تحت الشمس المحرقة ، وبرودة ليالي الصيف الصحراوية ، رؤوسهم محنية ، وعيونهم مشدوهة مما حدث .

« في ساعات ، التفت حولنا اذرع الاخطبوط الشريرة . راحت طائرات العدو تصطادنا كالجراد . تشوينا مع مدرعاتنا بقنابل حارقة . لم يعد أمامنا سوى العودة الى البيت ، تحت نجوم الليل ، وشمس النهار ، فرارا من الموت بلا مقابل ، كم شعرت بالعار ، وانا احدق في عينيك يا نجوم الليل ، ويا شمس النهار ، الآن ، لا اشعر سوى برثائها، الآن . ارثي نفسي » .

كان « محمد بن ابراهيم » اسعد الرجال حظا . دبابة اللاسلكي البرمائية الضخمة نجت من كل شيء ، بمصادفة معجزة ، نجت من قنابل النابالم ، والصواريخ ، والقذائف ، والالغام ، ودوريات العدو ، وحملت معها العديد من الرجال في قلبها ، وعلى جوانبها وسطحها وشقت بهم الصحراء ، واخترقت القناة المالحة المياه ، الى الضفة الغربية ، حيث البيت ، والاهل ، والوادي ، والنهر .

« هل تراك فرحا لانك نجوت ؟ لا .. انني كاليت الآن . فرحت لان دبابتي نجت من الهلاك . هل تذكر كيف كنت تربت عليها بكفك ، وتقبلها بحنان ؟! »

وبين الاغصان ، كانت العصافير ما تزال تزقزق ، وتتواثب ، مرفرفة بأجنحتها ، انها لا تبكي . الحياة مستمرة ، ما تزال تحيا ، لانها تحيا ولا تبكي تحس بالامن . لا بد ان كل شيء لم يذهب بعد ، ما تزال الارض ، وما يزال هؤلاء الرجال ، وما يزال هو حيا ، وتلك الاشجار ، وهذه العصافير .

●●●

جاء العريف . توقف ، وهتف :

ـ محمد . الضابط يريدك .

كف محمد عن التأرجح ، ونهض سائرا خلفه ، فكر انه ، في وقت آخر ، ما كانوا يتركونه يتأرجح كما كان . ما كان هو يقبل لنفسه ذلك ، في ساعة العمل ، وعرق الآخرين يتصبب على جباههم . في وقت آخر، ما كان العريف يناديه باسمه ، بهذه اللهجة العطوف المحايدة . سلبت الهزيمة الجميع كل رغبة في التسلط والتحكم . واخذا يواصلان اختراق غابة الاشجار ، وظلالها تتقاصر مقتربة من نقطة الزوال ، حيث لا ظل سوى نقطة الصفر . ورنا محمد الى العريف لحظة . لقد عاد سائرا على قدميه ، عبر صحراء يتنزه الاعداء الآن تحت سمائها .

امام الخيمة جلس الجنود في ليلة حارة . ودخان الارض الساخنة يحجب رؤية النجوم . وجاء دور العريف ليروي حكايته :

« كل شيء تحملته بصبر يا رجال . ان اهزم في حرب ، هذا محتمل . ان يخدعني عدوي ويضربني فجأة ، هذا محتمل ايضا . ان أعود سائرا على قدمي جائعا وظمآن . ان يقال لي ألق بنفسك في هذا النار ، ومت بلا ثمن .. كل هذا محتمل يا رجال . لكن الشيء الذي لا احتمله قط ، هي الطريقة التي كان يتصرف بها ، معي ، ضابطي الرفيع المقام . صعيدي انا ، ورضعت الحرية من ثدي أمي ، وعيني أبي ، ودروب الجبل ، ورمال الصحراء » .

كانا عائدين من الموقع . خسرا معا كل شيء : الموقع ، والوحدة المرابطة ، والاسلحة الثقيلة ، والعربات . كل شيء قد احترق ، وتفرق من بقي حيا من الرجال ، في طريق العودة . ساروا غربا معا ، ثم مزقهم الليل والاجهاد واليأس ، وطائرات العدو ، ومتاهات الطريق. وبقي هو مع ضابطه . تضليلا لبسا ثوبين لبدويين . كان الضابط يسير في المقدمة ، والعريف يسير خلفه . اجهد الضابط وتعثرت خطواته . ما تزال لدى العريف بقية من قوة وعزم . وجد نفسه يسير بجوار ضابطه . وجد ضابطه يتأخر عنه خطوة او خطوتين .

ـ ماذا افعل ؟.. انه اكرش ، سمين . وانا كما ترون . هو ابن عز من المدينة ، وانا فلاح صعيدي . اعتدت النوم على الارض المحروثة حديثا ، وتعودت على الشقاء ..

واخذ الضابط الرفيع المقام يثور مهتاجا :

ـ عسكري ؟

ـ نعم يا افندم .

ـ مكانك خلفي .
ـ امرك يا افندم .
ـ اتسمع ؟
ـ حاضر يا افندم .
عسكري . امرك . عسكري . حاضر . مرة ، واثنتان ، وثلاث . وعشر .
ـ هل هذا وقته ؟.. شيء لا يحتمل يا رجال . لم أطق صبرا . الآن ، كلانا مهزوم ، وكلانا بلا رتبة ، وكلانا في ثوب بدوي . لم الصبر اذن . صرخت فيه . هددته بالضرب ، ولا من سمع ، ولا من رأى . اتعرفون ماذا حدث . ارتعش ، وتضاحك ، وشفتاه جافتان مشققتان . واكد لي اننا اخوة ، واننا ابناء وطن . الآن فقط ، عندما تنمرت في وجهه ، يدرك اننا أخوة ، وابناء وطن . اكد لي انه قد اعتاد ذلك . الفرمانات العثمانية علمته ان يفعل ما فعل . كنت قاسيا معه . طلب أن اسامحه ، وان نبدأ معا من جديد . وجدتني يا رجال أحيطه كرجل بساعدي ، واقبله . عاد يعانقني ويقبلني . وبكى كلانا على صدر الآخر.

●●●

بلغا عنابر العسكر وخيامه المتناثرة . وصعدا معا بضع درجات لسلم خشبي ، وانعطفا يمنة الى غرفة الضابط . قال العريف :
ـ اسمع يا بني . غالبا ستنال ترقية . شريطين على شريطيك هذين . ربما اصبحت رئيسا عليّ .
ـ ترقية ؟!
ـ اقبلها . لكن . احذر أن تكون مثل ضابطي يوما .
ودخلا مكتب الضابط ، ورفعا كفيهما بالتحية ، ودقا قدميهما .
ـ تمام يا افندم .
ـ اذهب أنت .
وعاد العريف يدق قدما بالاخرى . واستدار على كعب يمناه ، وبقي هو ، بمواجهة الضابط ، وراء باب مغلق .
ـ اجلس .
وجلس محمد ، وانتظر . قال له الضابط وهو يتصفح اوراقا:
ـ خذ راحتك .
اراح محمد ظهره الى مسند المقعد ، وقاوم رغبته ليضع ساقا على ساق . وفرغ الضابط من اوراقه . فأخذ يتأمل للحظة وجه « محمد بن ابراهيم » : فارع العود . يحاكي لون بشرته لون الطمي المندي في الصباح . وعيناه مليئتان دهشة وسوادا حزينا ، كأنه على وشك أن يبكي ، لولا .. هذا السكون المتجمد في ملامح وجهه . قال له الضابط برقة :
ـ محمد . لم تعد تضحك . لم ؟
ـ اضحك ؟
كاد ان يتضاحك فعلا للسؤال الغريب . لكنه اخذ نفسا عميقا ، ثم قال :
ـ لماذا أضحك ؟.. كيف ؟
« شر البلية ما يضحك » .
حدثته نفسه بهذه الحكمة القديمة ، فأجاب قائلا للضابط :
ـ جفت رغبتي في الضحك ، أي ضحك ، لاي سبب .
ابتسم الضابط ، وقال :
ـ اوحشتنا نكاتك .
قال محمد في دهشة :
ـ هل ترى احدا آخر يضحك ؟
وجم الضابط ، تنفس بقوة . ونهض . جلس على المقعد المقابل لمحمد ، وقال :
ـ أنت تفهمني . أنت رجل مثقف .
ثم قال :
ـ قرأت تقريرك عن الدبابة . كان حظك طيبا ، ولم تتركها خلفك. وكان محتملا ان تقصفك الطائرات بسببها .

كانت الطائرات تمرق فوقه ، مقبلة من الشرق ، ومن الشمال ، منفردة ، او في تشكيل . لكنها لم تكن تتوقف لضربه . كان يقفز منها مع الآخرين ، وينبطحون زاحفين بعيدا عنها . لكن الطائرات كانت تمضي صوب الغرب ، غير عابئة بهم . لديها مهام أخرى : استطلاع ، تصوير ، ربما هدف آخر .
رفع محمد رأسه ، وقال :
ـ اعرف . لكنها كانت دبابة ضخمة ، تغني لواء بأسره ، عن خمس دبابات لاسلكي . وتسير في البر والبحر . كيف كان يمكن ان اتركها . ثم ، لا اخفي عليك ، كانت تحملنا ، وتغنينا بسرعتها ، عن السير ، والمبيت ، والجوع ، والعطش .
ـ اسمعني . انا لا ألومك . بالعكس . مهما كانت الاسباب ، فقد كنت الوحيد في قوتك الذي عاد بدبابته .
ـ كان حظي حسنا ، ولم افرط فيه .
كانت الدبابة الوحيدة التي نجت من الموقع ، برغم ضخامتها . لم تكن وسائل التعمية لتخفيها عن الطائرات المنخفضة . ربما بدت لها جزءا من التل ، الذي كانت تقف الى جواره .
ـ لا تهون قيمة عملك . لقد ظلت لك اليوم شريطين سيضافان الى شريطيك .
قال محمد بلا مبالاة ، فاجأته هو نفسه :
ـ ما فائدة كل ذلك ، بعدما حدث ؟
وصمت . أخذ الضابط . عاد يتأمل وجهه . أحس كأنه يراه لاول مرة ، قلبا نابضا أيضا ، كانت الضحكات تخفيه . واضاف محمد مبررا :
ـ انني لم أحارب . حوربت ولم أحارب . في يومين ، ذهبت بالامر ، وعدت بالامر . ثم ، في يومين ، اليومين التاليين ، ذهبت بالامر ، وعدت بالامر ، ولا شيء آخر .
قال الضابط مؤكدا :
ـ انه أمر . ستحمل شريطين آخرين .
وتنهد الضابط ، ثم اردف :
ـ اسمع يا محمد . ما فات مات .
« كيف يموت ؟ انه حي . حي معي » .
ـ ربما يموت يوم نمحو عاره ..
« حتى في هذا اليوم ، ستظل تحمل ذكراه معك » .
ـ ربما يموت عندما أموت أنا .
ـ على أي حال ، ما حدث كان تجربة . واعدك انك لن تذهب مرة ثانية ، الا لتحارب ، حتى النصر .
ـ حاولنا ان نحارب فعلا ، لولا هذا النابالم اللعين ، ثم .. طائراتنا لم تكن معنا .
ـ في المرة القادمة ، ستكون .
« كيف ؟.. متى ؟ »
وحدث نفسه ، انه سيعود يوما ما ، وربما يعود سواه في يوم آخر .
قال الضابط :
ـ انت في حاجة الى راحة . اسمع . سأعطيك سبعة أيام . خذها واذهب الى بلدك ، لتستريح ، ثم .. عد الينا .
أحس بتوتر . قال :
ـ لا . لست في حاجة الى راحة . انني مستريح هنا .
ـ لكنك تهذي في الليل ، تقع تحت كابوس ، وكأنك تحارب في الميدان .
ـ ذلك شيء يرغمني .
ـ وفي النهار ، أراك صامتا ، وحزينا . لا تضحك . ولا تعمل مع رفاقك في الخنادق .
قال محمد معتذرا :
ـ سأعمل الآن .
ابتسم الضابط . قال :

ـ بعد ان تعود .

ثم أضاف بحزم :

ـ ستذهب . هذا أمر .

ونهض الضابط عائدا الى مكتبه . كتب له تصريحا بسبعة أيام كاملة . ووقف محمد . اخذ التصريح ، ورفع يده بالتحية ، واستدار منصرفا .

ـ ٢ ـ

في شوارع المدينة ، كان الناس ينظرون اليه بدهشة . لاحظ ذلك . قال له رفاق وحدته ان يلبس ثوبا مدنيا . تبرع له اكثر من واحد بثياب مدنية : ثوبا بلديا . ثوبا افرنجيا . بدلة . أغروه ليترك حلته العسكرية ، او يأخذها معه في حقيبته . رفض ذلك كله . لا فائدة من اخفاء وجه الحقيقة . الناس يعرفونها ، ويعرفونه معها ، مهما كانت ثيابه . حذاؤه عسكري لا يخفى على أحد . وجهه مشدود الجلد ، لوحته الشمس ، له لمعة خاصة ، يحمل وجه الجندية . الطريقة التي قص بها شعر رأسه . كفاه ضخمتان شكلهما حديد الدبابة ، ومقبض البندقية ـ فكر أنه بدلا من هذه الدهشة في وجوههم ، كانوا سيبتسمون . فكر أنه ما يزال أبنهم الشجاع والحر . لذلك لا يغرون به . بالعكس . انهم يبادلون نظرته الحزينة ، بنظرة عزاء صامته ، ما تزال تعقد الامل عليه . وانعطف محمد والجا مبنى حكوميا .

عانقه « رأفت » بحب اكثر من أي مرة ، عناق من يؤاسي في كارثة شخصية .

ـ حمد الله على سلامتك .

صافح زملاء رأفت في المكتب ، وجلس . خالسوه النظر مرارا . تفادى ، مثل رأفت ، ان ينظر في وجهه . جهد ، مثله ، خلسة ، ليملأ عينيه من ملامح صديق .

ـ تعال يا عم عبده . ماذا تشرب ؟

ـ أي شيء . لا . لا داعي لشيء .

ـ لا . قل .

ـ قهوة .

ـ لا . أطلب شيئا باردا . الدنيا حر .

ـ لا . قهوة .

ـ يا رجل . لم نرك من زمن . رفه عن نفسك . الحياة لا بد ان تستمر .

« تستمر ؟ »

ـ طيب . شيء بارد .

لذلك ، ما تزال السيارات تجري في المدينة ، والقطارات ، والقوارب . المقاهي مفتوحة ، والناس جالسون على مقاعدها . وآخرون يروحون ويجيئون ويتحدثون . لذلك ، ما تزال الشمس تشرق ، والذرع الرجال والنساء متعانقة . لكن ، في القرار ، بل في الوجوه ، اشياء يراها القلب وحده. لاحظ ان صمتا عميقا مرتعشا يقبع وسط الاصوات على الشفاه . لاحظ ان الاحاديث مرتفعة الاصوات ، ساخنة الكلمات . حركات الايدي والاقدام والنواجذ عصبية . مشاحنات لاسباب تافهة سمع أطرافا منها في الاتوبيس ، في المقهى ،على الرصيف ،في محطات الانتظار ، في مداخل دور السينما .

ـ هل سمعتم آخر نكتة ؟

اقشعر شيء في صدره وأذنيه ، لكنه لم يلتفت ناحية صاحب الصوت . قال رأفت مغير المجرى :

ـ دعنا من نكاتك .

قدر محمد ان رأفت اشار لصاحب الصوت ، في نفس اللحظة ، اشارة ما . أردف رأفت :

ـ حمد الله على سلامتك .

صمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ قل لنا : ماذا حدث ؟

« ما حدث أنتم تعرفونه أكثر مني . في الجبهة ، في المعسكر ، لم أر سوى جانب من الصورة . الصورة كلها أنتم تعرفون وجهها . نحن جميعا ما زلنا نجهد لنعرف حقيقتها، نتملى ملامحها. ونفكر . ونخمن».

ـ نعم . قل لنا : ماذا حدث ؟

التفت لزميل رأفت الذي سأل . في وجهه الغارق في الخدر ، في عينيه المبتسمتين ، بريق استدراج ماكر . قال له :

ـ هل تعرف أنت ؟

ضحك رأفت . وسكت زميله . ثم نبر :

ـ على رأيك . .

شرب زجاجة البرتقال دفعة واحدة . بدا المكتب كله ثقيلا على نفسه . عاد صاحب الصوت الموجع ينكأ الجراح :

ـ هل سمعتم ما حدث في شبرا ؟

وروى حادثة أخف منها أية نكتة .

ـ هل سمعتم ما حدث في الاتوبيس ؟

وروى حادثة اخرى ، بدت كأنها نكتة . العجيب ان احدا لم يضحك . وعلى الوجوه كان ألم يعادل ما في قلبه .

« لماذا تضربون أصابعكم ، اذن ، في جراحكم ، وتتاوهون في لذة ؟ أفواهكم تتألم ، ووجوهكم تضحك ؟ »

سأله صاحب الصوت الموجع ، ذو الوجه الغارق في الخدر :

ـ أتعرف ؟ أنت في غاية الشجاعة .

ادرك محمد ما يقصده . أجابه في حدة :

ـ ما تزال الجندية شرفي .

واضاف :

ـ وشرفك أيضا . اسمع . لم تكن الحرب دائما نصرا .

ونهض محمد غير غاضب ، لكنه لم يستأذن . ترك المكتب مسرعا ، ولم يصافح احدا .

« مدينة يعيش اهلها بغرائزهم . يحيون بلا قلوب. لا ينظر احدهم ابعد من قدميه . لا يعرف احدهم شيئا سوى السخط ، واليأس ، والنقد ، والضحك الهستيري . الآن ، تكشف الهزيمة وجوهكم الحقيقية . فمتى تتطهرون ؟ متى تصبحون بشرا ؟ »

وقرر محمد ان يعود الى قريته مسرعا .

« الناس هناك ، اعتادوا الايام الحلوة ، والايام المرة ، فتحوا قلوبهم للصبر . يحيون بقلوبهم اولا . يعيشون كل يوم حكاية الميلاد والموت ، والصحة والمرض ، والضحك واللوعة . لكنهم لا ييأسون ابدا . لا يغلقون ابواب بيوتهم في النهار . يدركون ان كل شيء يبدأ من جديد ، مع مشرق شمس يوم آخر . تعود الارض لتنبت ، والشجر ليمتد ، تغلق مقبرة ، ليصرخ وليد » .

ـ ٣ ـ

في القطار ، لم يستطع ان يغفو . ودت كل جوارحه ان تنام . هجعت جوارحه الا عينيه ، وجزء من مخه يفكر بلا انقطاع ، وجزء آخر يتدفق بالذكريات . تتوالى القرى والمدن عائدة الى الخلف مع اعمدة التليفونات ، ومصابيح النور ، والاشجار السامقة ، والقنوات ، والمصارف . تتغير درجات الضوء والظلال ، ودوائر الافق المخضرة على اتساع المدى .

« هذا هو الوطن » .

في هذه الارض ، رمحت يوما ، في أيام بعيدة بعيدة ، عربات الغزاة وخيولهم . زعق القتلة . شرعوا سيوفهم على الاعناق . صوبوا البنادق والمدافع على الظهور والصدور . ثم ذهبوا ، تطاردهم الاحجار والسواعد ، والمقاليع والسيوف ، والبنادق والمدافع . بقيت الارض ، وظل أصحاب الارض في ارضهم . غربت الشمس ، ثم عادت لتشرق .

كلما غربت تعود لتشرق مرة اخرى . يعرف العدو ، كما تعرف يا رجل، هذه الحكايات الباقية تاريخا لهذا التراب . لذلك لم يضرب اهدافا مدنية . لم يحن في تقديره موعد هذا الضرب بعد . الخديعة يلجأ . يأكل الارض قطعة قطعة . يرقد في بيات شتوي بعد كل مرة ، حتى ينسى الناس ، ويصبح ما حدث أمرا واقعا . لكن أصحاب الارض ، الآباء ، والاجداد ، والاحفاد ، كيف يمكن لهم ان ينسوا . كيف ينسى أهل البلاد ان واحدا منهم بين كل الفين قد قتل . وغدرا قتل . ان شطرا من ارضهم قد نزع خديعة وعنوة .

تملت عيناه ، عند منعطف ، ساقية تدور ، وطفلا يغني . فوق ضجة القطار يسمع الموال والانين . يعودان لينبضا في صدره حنينا وأسى . مثل دورة الساقية تدور الحرب . تفرغ رجالا ، كشلال المياه المتدفق ، ليروي الارض العطشى بعطاء النهر ، وحياة الرجال .

●●●

اعواد الذرة تفقم الجو بأريج الشواشي . على أديم الارض ، تحتها ، يتقاطع الظل والضوء ، يدغدغان عينيه المفتوحتين . تهب ، مع النسمة والحفيف ، روائح المياه في القناة ، وخصوبة الطين . استدار بوجهه الى الارض . غرس أنفه في التربة الرطبة . فتح ساعديه على استطالتهما ، وغرس أصابعه في الطين متشبثا ، وعانقها . ابتسمت ابنة عمه « نهدة » . ابتسمت كأم ، وسألته :

ـ تحب الارض ؟

أجابها بعينين مفعمتين بالنور :

ـ انها بيتي .

ـ وانا ؟

ـ انها بيتك أيضا .

وحفن من التربة الرطبة ملء كفيه ، وقال لها :

ـ شمي .

واسبلت عينيها ، وشمت . بل ذاقتها ، ومضغت . وضحكا . ومدت يدها لتقبض على فرسة خضراء ، وقفت في ضوء الشمس على ورقة .

ـ ماذا ؟ أبيعك أرضي ؟ هل .. لا تؤاخذني .. هل حدث لعقلك شيء ؟. وأنا اقول انك شيخ بلد عاقل ؟

ـ يا أبا محمد . انني اعرض عليك ذلك لمصلحتك .

ـ أنا أعرف مصلحتي اكثر منك . انك تبحث عن مصلحتك أنت .

ـ يا أبا محمد . انني اعرض عليك ضعف الثمن المعروف ، لاي فدان في الزمام .

ـ لا . ولا مائة ضعف .

ـ أبناؤك جميعا في التعليم . وقريبا سيصبحون موظفين . من يبقى لهذه الارض ، بعد عمر طويل لك ؟

ـ ابني الاصغر . انه في مدرسة الزراعة .

ـ يا أبا محمد . من صالحه ان يبتعد عن شقاء الارض ، والزرع والقلع .

ـ اسمع . هذه الارض اخذها الباشا من جدي يوما . ولن اعطيها لك اليوم .

ـ قل لي : ماذا تفعل اذا رفض ابنك الاصغر ، ان يعمل فيها ؟ سيضطرون لتأجيرها ، وانت تعرف التكاليف والنتيجة .

انفجر ابوه في وجه يوسف شيخ البلد :

ـ لا .

ـ يا أبا محمد . اسمعني . المصاريف ترهقك ، وانت بحاجة الى مصاريف للاولاد في مدارسهم . وسوف تعمل طيلة حياتك في ارضك . تؤجرها مثلا .

ـ لا .. اسمع يا حاج يوسف . المسألة هكذا باختصار . هذه الارض ملكي الآن . انك تشبه من يذهب الى انسان ليشتري بيته ، لانه جائع . يكون مجنونا لو باع البيت لانه جائع . عليه ان يصبر ويصبر ، حتى لو مات جوعا . سيموت تحت سقف بيته ، لكن اولاده سيعيشون، بعده ، تحت هذا السقف .. أغلق هذا الموضوع يا حاج يوسف ، واشرب قهوتك .

واذ كان شيخ البلد يشرب القهوة ، تمتم أبو محمد قائلا :

ـ عجيبة . كأننا نتخلص من باشا ، لنحل في مكانه وجيها . فلتأخذها الحكومة ، ونزرعها بنفسها اذن .

زعقت صفارة القطار ، وتباطأت اذرع عجلاته . امتدت يد من كشك خشبي على مدخل المدينة ، وتناولت من السائق حلقة حديدية . مر القطار من تحت كوبري علوي ، وزحف في بطء حتى سكن . وانفتح صمام البخار فوق القضبان . كان النهار قد ولى منذ زمن . دهش محمد لهذه الحقيقة . حسب نفسه خارجا من الحلم ، أو من الماضي ، لتوه .

على الرصيف ضوء شاحب ، لا يكاد ينير ما تحت السقف المائل . انحدر هابطا سلالم المحطة . لمحت عيناه لوحة تحمل اسم المدينة . رأى الشاب الكفيف المترهل ، يضع يده على خده ، ويرتل من سقف رأسه بلا حرارة : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » . هدأت المدينة الصغيرة مبكرا . عربات الحنطور تصلصل باجراسها ، داعية المسافرين العائدين الى بيوتهم . اجتاز طريقا مقفرا الى موقف الاتوبيس . هذه هي السيارة الاخيرة التي ستمر بقريته .

ـ ستقوم بعد نصف ساعة .

تفكر قبل أن يهم بركوبها . سيجد واحدا او اكثر من قريته . سيتحدثون اليه ، ويسألونه . فكر انه غير صالح الآن ليتحدث الى أي واحد ، او يسمع سؤالا . تذكر أياما مضت ، في سنوات بعيدة . كان يأتي من قريته سائرا على قدميه الى هذه المدينة . غالبا بلا سبب وغالبا ليقطع الفراغ والصمت ، ويرى الدنيا خارج قريته ، ثم يعود بنفس الطريقة . ثلاثة عشر كيلو مترا . ساعتان فقط ، بخطوة معتدلة ، ويعود الى بيته ، قبل منتصف الليل . سيكون هذا افضل ، سيكون الناس والاهل قد ناموا . سيكون بوسعه ان يرقد هادئا حتى الصباح. وانحرف محمد مبتعدا عن المدينة ، صوب شاطيء الترعة الغربي .

ـ ٤ ـ

عند طرف المدينة ، كان كشك خشبي منعزل ، خلف تعريشة لشجيرة متسلقة . كان الكشك مضاء لم يزل . سمع من ورائه همسا ، وصوت كركرة تبوح بها قصبة غابة . توقف محمد واشترى علبةسجائر، ومشط كبريت ، واشعل سيجارة . اشترى ايضا علبة بسكويتصغيرة . تأمل في الحلى الرخيصة المعلقة . قطع ذهبية ، واخرى ملونة . تذكر أخته الصغيرة . من يمكن ان يعود الآن بأشياء مفرحة كهذه . من يمكن ان يعيش تجربة ، كتجربته المرة ، ويحمل في يديه آية هدية . ستفرح بعودته حتى ولو لم يحمل لها شيئا في يديه . هي بعد هدية لطفلة . ينبغي ان تبتسم ، لانها طفلة . حسبها ان تلمح عفوا نظرته الحزينة ، ووجهه المهموم ، وصمته النكد . ابتاع لها الحلق والخاتم ، واسورتين مزينتين بفصوص زرقاء وصفراء وخضراء وحمراء . ومضى على الشاطيء الغربي للترعة الواسعة .

كلما ابتعد عن المدينة ، يحس بمزيد من الالفة والونس ، لليل ، وللارض . عالمه الازلي القديم . ولم يكن ثمة في السماء قمر . معزوفة الليل تصدح في أذنيه : طيور الليل ، وحشراته الارضية ، وكائناته المائية . تمارس حياتها الاولى القديمة . والظلام مثقل حتى الحافة ، بعبق الارض الخصبة ، ورطوبة ليلة حارة وانية النسمة . وفوح الازهار ، ولوز القطن ، وحفيف الاوراق والغصون ، تهزها حركة خفيفة ، وخرير المياه يغسل فجوات الشاطئين ، وجذور اشجار السفط والصفصاف والتوت . ووميض النجوم يبرق في الاعالي ، متوجا قبة السماء ، يبارك الارض ومن عليها .

جذب الى صدره نفسا عميقا ، وهو يتوقف ، ويتملى ما حواليه ،

وما فوقه . وحين زفر خرجت مع هواء صدره صيحة اعجاب خاشعة :
« اللـه » .

للتو ، جذبت الكلمات القديمة بعضها بعضا : .. يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، يولج الليل في النهار ، ويولج النهار في الليل . يخرجكم من الظلمات الى النور . بلى . من ظلمات الهزيمة ، كما يخرج الاحياء من الموتى ، والنهار من الليل . سنة الحياة هي . ووحيد هو مع عيون الليل ، والاشياء . عار امامها خلف ثيابه . تزحمه مشاعر الوحدة مع معزوفة الظلام . يطوح بعقب سيجارته ، ويفتح ساعديه على اتساعهما ، ويروح يجري مع الطريق ، دائرا حول نفسه ، بلا انقطاع .. حتى تتداخل اصوات الليل كلها في صوت واحد في اذنيه ، صوت دوامة من الطنين تصنعها جوقة من الاوتار ، صوت خلايا من النحل الهائج في الظهيرة .. حتى تدور الارض عكس دورته وتدور معها قبة السماء ، ويصبح كل شيء كرة منبعجة ، صغيرة صغيرة ، لا تكف عن التأرجح والدوران .. وهو المحور والمركز لكل شيء في هذه الارض والسماء . وتوقف . أنفاسه مبهورة ، والدنيا ما تزال تدور ، صاعدة هابطة ، ويغمض عينيه ، وينعثر يمنة ويسرة في وقفته ، ويستند الى ساق صفصافة . ثم يهدأ كل شيء . يشعر أنه خارج لتوه من حمى مرعشة . يشعر بالراحة . ويعود يواصل هادئا مسيرة الليل .

ود لو يغني ، ليسري عن نفسه . لكنه لم يجد في قلبه أية كلمات او انغام . بدت ، لسمعه ، اصوات الليل ضجة صاخبة ، تحتج على سكون اعماقه . انفصل جوهره عن الاشياء . هذه اول بلدة : طوخ . قابعة في الليلة بلا ضوء ، على الضفة الاخرى . وشبكة الاسلاك والكابلات تمتد في البعيد وراءها . نيام هم اهلك أيتها القرية ، يحلمون بالحصاد ، يذكرون في مرقدهم ، اموالهم الذين راحوا ، وشهداءهم الذين لم يعودوا . لا يعودون الا مع الليل اطياف منام ، في ثياب بيضاء ، تنز جراحهم دما الى يوم القيامة ، ارواحا حائرة هائمة ، تحملها في الحواصل طيور الليل ، تزعق على حفافي القنوات ، وفوق الدور ، مطالبة بالثأر لتهجع ، وترتدي ثياب الموتى الخضراء . كم شهيدا منك يا طوخ . قريتي منها سبعة شهداء . زاد نصيبها ، في الضريبة العامة لتعداد الوطن ، شهيدين .

احدهم قال له العدو ضاحكا :

ـ أنت ظامىء . خذ واشرب ، ماء مثلجا في هذه الصحراء . انت جائع ، خذ ، كل ، هذه البرتقالة اليافاوية ، وهذه البسكوتة . أرأيت كم نحن طيبون معك وكرماء ؟ حسنا . لا . ليس الآن . اهتف ضد بلدك . اهتف بحياتنا .

ـ أنا . لا . أنتم غزاة ، اشرار .

هل يمكن أن ينسلخ الرجل من جلده ؟

ـ هكذا . اذن . خذ .

واطلق رصاصة على ظهره ، وهو يعبر .

آخر قال له العدو ضاحكا :

ـ مع السلامة .

واضاف وفي يده البندقية :

ـ لا تعد لحربنا . نحن مسالمون ، كما ترى ، نريد أن نعيش معكم بسلام . انتظر . قل لي . لو انتصرتم انتم ، ماذا كنتم تفعلون بنا ؟

ـ لا شيء ، سوى شيء واحد . ننزع من ايديكم السلاح ، والمخالب ، والانياب .

ـ هكذا . اذن . خذ .

واطلق في صدره رصاصة ، قبل ان يلتفت .

مع أيهما كان شهداؤك ايتها القرية النائمة ؟!

●●●

في الليلة الحارة ، امام الخيمة ، باح جندي من الكتيبة ، فلاح من قوص ، بما يثقل صدره .

« ضللت طريقي في العودة . وجدتني وحيدا . رأيته ملقي مثخنا بالجراح . محموما يهذي : ماء . لا ماء معي يا صاحبي . اني ظامىء مثلك ، تشققت شفتاي . اسير فقط صوب مغرب الشمس أقم معي . انهض . لا استطيع . دعني ، أنني اموت ، أشعر بالبرد . فمه يتساقط برغاو كالزبد ، اقتلني . لا ، مستحيل . حاولت ان أحمله . وجدت نفسي ، وقد منهارا بجانبه . ما العمل ، الليل ، والعدو ، واخطار الصحراء .. هنا . اسمع ، أحفر لي لحدا هنا ، ثم صوب رصاصة الى جبهتي . كان يهذي ، يتحدث عن كل شيء في وقت واحد . كل شيء يا رجال . انه يحتضر . ماذا يمكن ان تدل عليه هذه الرغاوي سوى موت قريب . مجنون أنا اذا جلست معه حتى يطلع النهار ، والليل للسائرين ستار . عاجز عن حمله . عاجز عن اراحته بالموت . عاجز عن تركه هكذا . حفرت له حفرة بصعوبة بالغة . مددته في قلبها . جعلت من حافة الحفرة وسادة لرأسه . اذا عاش فسينهض . اذا مات ستغطيه رياح الصحراء بالرمال . لكن رأسه ستظل على حافة الحفرة . ماذا لو غطته الرمال ، وبقي حيا ، ورأسه ترقب الارض من حوله : الاقدام ، واخطار الصحراء . وعيناه تدوران يمنة ويسرة في خوف . حتى الآن ، اراني ممددا في مكانه ، اعاني محنته . هل مات ؟ هل عاش ؟ محنة ، يا رجال ، لا حكم الله بها على احد » .

أيكون ابنك المفقود هو هذا الرجل الوحيد ، يا طوخ ، يا طنبول ، يا سنفا ، يا طهواي ، يا قرقيرة،يا كفر العناية ، يا اخطاب، يا دماص، يا عزبة العبيد ، يا قريتي ؟ .. أم تراه هذا المفقود الآخر ، الذي حدثنا عنه في الليلة الحارة ، امام الخيمة ،جندي من الكتيبة ، عامل من المحلة الكبرى .

« سيارة الجيب كانت مثقلة بنا . لوح لنا بيديه لنحمله معنا . لكن السيارة كانت تئن بنا ، وليس بيننا ثمة مقبض لاية يد اخرى . مرقنا منه ، وتركناه خلفنا ، وعيناي معلقتان به . لكنني رأيته في النهار التالي . حلقت فوقنا طائرة ، وانخفضت مسرعة . ألقينا بأنفسنا بعيدا عن السيارة . تباعدنا في زحفنا . وظلت السيارة تجري وحدها، حتى دمرتها الطائرة بقنبلة . ومشينا على اقدامنا . تباعدنا في مضلة الليل ، ورأيت نفسي وحيدا . ثم التقيت به ثانية ، وانا ادور حول هضبة . أنت . لا عليك . انها لحظة رهيبة يمكن ان يكون فيها أي شيء . لا تعتذر هنا عن أي سلوك ، فليواجه كل منا حظه كيفما كان . لم يسألني عن اسمي ، ولم اسأله عن اسمه . يمكن ان يكون انا هو ، ويمكن ان يكون هو أنا . ما حاجتي الى اسمه . وليس في نفسي أي حديث اقوله له . ونحن نتحدر ، رأينا عربة مدرعة . فتحت علينا نيرانها ، واتجهت نحونا مسرعة . انبطحنا ارضا ، وزحفنا متباعدين . رأيتها تتجه نحوه لا تفارقه . وأنا اختبىء تحت حجر ناتيء . رأيته ينهض ، وينزع من وسطه قنبلة ، ويجذب سلك زنادها بفمه ، ثم يلقي بنفسه على العربة المدرعة ، وينسف نفسه معها بالقنبلة . الآن ، فقط ، وددت لو عرفت له اسما . سيظنه الكل مفقود غير معروف المصير . لكنني اعرف مصيره . لقد حارب ، واستشهد . أخذ مقابل حياته ثمنا باهظا . كم منا من اتيحت له الفرصة ليفعل ذلك !! »

« اما انا ، يا أهل بلادي ، فقد كان حظي كما ترون ، وجئت ساريا في الليل . احيا واحمل الخطايا على ظهري . اواجه عيونكم بلا فخر . اسمع عتابكم كأنني لست منكم . كأنكم لستم مسؤولين معي عن شيء ، كأنني ، وحدي ، كنت القوي والقادر على كل شيء » .

وانعطف « محمد بن ابراهيم » يمنة ، عابرا قنطرة الترعة ، ثم انعطف يسرة ، فيمنة ، منحدرا الى طريق القرية .

ـ ٥ ـ

عقارب ساعته الفوسفورية تقترب من منتصف الليل . لذلك نامت القرية ، حتى الخفر قد غفوا . تألف الكلاب رائحة « محمد بن ابراهيم » ، لذلك هزت أذيالها ، ونامت ، ولم تنبح . ولت القطط و « العرس » هاربة في الحارات ، وظلت اصوات انفاس الليل تتردد من حوله . توقف امام الباب . ودهش ، للحظة ، لانه اضاع في الطريق

كل هذا الوقت . أحس انه مجهد ، وانه يقظ مشدود كالوتر . اوشك ان يدق الباب . فكر ان الجيران سيستيقظون ايضا . دار حول البيت ، واتجه الى شجرة الجميز العجوز . تمد اغصانها الخمسة الضخمة قريبا من سطح البيت . تسلق ساقها بيديه وقدميه ، دون ان يتحسس طريقه ، او يبحث عن الفجوات ، وبقايا الاغصان القديمة النائئة . زحف على اربع فوق الغصن ، بحذر ، ثم نزل على سقف البيت ، واخذ يهبط درجات السلم . فكر ان كل شيء سيكون مفاجئا لابيه وامه واخوته ، لو كان قد دق الباب . أشفق على اعصابهم . جلس على درجة سلم بجوار الكوة في جدار القاعة . في داخل الكوة المصباح المسرج الخافت . على ارض القاعة ، في الداخل ، ينام أبوه وأمه ، بينهما اخوته الثلاثة ، واخته . افواههم مفتوحة تزفر وتشهق . شخير ابيه ، وانين امه المتقطع المعتاد ،لا يزعجان احدا . ثوب اخته تجمع من الحر عند صدرها . غمره نحو النيام دفق من الحب والاشفاق والحنين والخوف . الباب ، باب القاعة ، مفتوح على اتساعه حتما ، طلبا لنسمة ليلة رطبة . بوسعه ان يدخل بسكون ، ويرقد حتى الصباح . بوسعه ان ينام في باحة البيت على حصير . سيكون ذلك افضل . تذكر ان في جيبه بسكوتا لم يأكله بعد . فكر ان اخته يفرحها ان تأكل بسكوتا . اخرج العلبة من جيبه ، ووضعها في الكوة . نهض ، وهبط درجات السلم الباقية ، ودفع برفق باب غرفة الخزين . لم يفكر انه بحاجة الى ضوء . جثا . ومد يديه ، وتناول قدر لبن رائب ، واخذ يشرب حتى امتلأ . مسح فمه بكفه ، وعاد . جلس بجوار الكوة ، واشعل سيجارة ، وراح يدخن .

في الصباح ، سيزيط الكل ، ويأتي الجيران ، وتذبح امه بطة ، وتدور اقداح الشاي . سيفد الحلاق بحقيبته الاسطوانية التقليدية ، ويتورك امامه ، جالسا على ساقيه . سيسأله ابوه ، والحلاق ، والحاج سيد ، والشيخ مصطفى ، وشباب الحارة . سيسألونه جميعا :

ـ ماذا حدث ؟.. لماذا غلبنا العدو على امرنا ؟.. كيف حدث ما حدث ؟

« وأجب يا محمد ابن ابراهيم » .

في الضحى ، سيدعوه العمدة ومشايخ البلد الى الدوار ، ويسألونه بلا رحمة ، وحين يعجز يجيبون هم :

ـ ماذا حدث ؟.. لماذا غلبنا العدو على امرنا ؟.. كيف نجوت بدبابتك ؟

سترد أمه على الحلاق ، وأبيه ، والجيران :

ـ يوه . حسبه ما رآه . اذهبوا واسألوا الكبار .

سيعلق الحلاق عندئذ :

ـ معك حق . حسبه ما رآه . دعوه يلتقط انفاسه . لقد كتب له عمر جديد . حمد الله على سلامتك . لكن . قل لي : ماذا حدث ؟

وآه من اطفال القرية الذين لن يتحرجوا . سيقول الكثيرون منهم في حدة وغضب ، وهم ملتفون حول دائرة الشباب ، في الليل ، في جلسة السمر :

ـ آه . لو كنت انا هناك . كنت .. وكنت ..

ستعود في جلسة السمر الصورة المقابلة ، الصورة البعيدة القديمة النائية . مع نثارات من ذكريات السندباد ، وأبي زيد الهلالي وعنترة ، وسيف بن ذي يزن ، وخالد بن الوليد ، وصلاح الدين الايوبي . ولن تكون يا محمد ابن ابراهيم واحدا من جنودهم .

لا . لن ابقى هنا ، لاواجه احدهم ، واسأل ، وانا اسأل معهم . ومهما قلت فلن تكون قد اجبت . سأضع يدي على ساق الجمل ، واقول : هذا هو الجمل . لكنني أعلم ، وهم يعلمون ايضا ، ان هذا ليس هو الجمل . انهم ، اباك وامك واخوتك ، بخير كما ترى . ويعلمون انك بخير ، من رسائلك ، وزملائك الذين عادوا في اجازة . وهذا يكفي . قال له ابن بلده « احمد بن حسين » :

ـ لا تذهب الآن . سوف تتمنى لو لم تعد . سوف تندم لانك لست معنا هنا ، حتى في ايام الاجازة ، في وحدتك .

« لكن ضابطي قد رفض » .

وآه لو نمت الليلة هنا ، وعاودني كابوس الليل بطائراته ورماله وافواه مدافعه ، وهذا الشعور الساحق بالاحباط وخيبة الامل.سيفزع حتى الرعب أبوك وأمك وهؤلاء الاخوة . الآن فانهض ، يا محمد ابن ابراهيم ، وعد الى وحدتك .

مد يده الى جيبه ، واخرج الحلق ، والخاتم ، والاسورتين ، ووضعهما بالكوة ، بجوار المصباح . وبعث للنيام بقبلة من يده وفمه ، ونهض . صعد السلم ، وتسلق الغصن ، ونزل على ساق الجميزة . واتجه مبتعدا عن البلدة . سيعلمون في الصباح انه قد أتى زائرا في الليل ، وشرب قدر اللبن ، وترك علبة البسكوت ، والخاتم ، والحلق ، والاسورتين ، ثم كر عائدا . وويله من رسائلهم الغاضبة ، وهم لا يعلمون ما في القلب .

ـ ٦ ـ

عند القنطرة ، على الترعة ، تعثر في شعبة سنط . انحنى وتناول غصن السنط الجاف . واحس بالراحة . في يده الآن سلاح ما يواجه به الليل ،يؤنسه في وحدته على طريق العودة . امسكه بيده كالبندقية ، واسنده الى كتفه ، وانعطف ليعبر القنطرة . الحصان الحديدي رابض على جدارها . ينتظر من يدفعه من البداية الى النهاية ، ليجر السلاسل ، ويغلق البوابات او يفتحها ، يحجز المياه او يدعها تتدفق . تأمله لحظة في ضياء السحر . لم يصعد اليه أبدا طوال السنين التي مضت . دفع نفسه الى اعلى ، ووقف بجواره . وادار عينيه حواليه في الافق البعيد المظلم . أشرع عصاه بيده في الفراغ ، وزعق :

« ايها الناس . سأقول لكم ما حدث . ما رأيته ، وما رآه غيري .. »

وصمت . جذبته المشاعر الحبيسة الى الاعماق .

« كانت الدبابات تتقدم . لقد بدأت طائرات العدو المعركة ، وراء الخطوط الامامية . تقدمت دبابات العدو الالمانية ، سريعة هي ويسمونها « الفهد » . صوبت داناتها واطلقت . تفجرت الدانات على جدران دباباتنا . ارتجت لها الدبابات ، لكنها لم تصب بسوء يذكر . جدرانها السميكة الاسطوانية تشطف القنابل بعيدا . الدانات التي انغرست في جسم دباباتنا لم تترك سوى خدوش في جسمها الصلب ، اخذت دباباتنا ترد في الحال . داناتنا الروسية كانت تنفجر في « الفهد » ، فتطق معها كالبندقة . انسحبت دبابات الفهد الباقية مسرعة . وجاءت من بعدها الطائرات . ألقت بقنابلها على دباباتنا ، فلم تصنع شيئا يذكر . نادرا ما اصابت قنابلها نقطة ضعف في جسم دباباتنا . ترتج الدبابات ، وتنشطف القنابل ، ولا يبقى سوى الخدوش ، وتعود الطائرات بخيبة الامل . وتأتي طائرات اخرى . تأخذ في القاء قنابل النابالم الحادقة . وتلتوي مدافع دباباتنا في نار الجحيم . أين انت يا طائرات بلادي .

وعد يا محمد ابن ابراهيم بدبابتك التي نجت . عد هذه المرة

سقوط الأقنعة ..

ديوان جديد

لشاعر المقاومة في الارض المحتلة

سميح القاسم

صدر حديثا : ٢٠٠ ق٠ ل

عبر الصحراء الى موقعك الاول . ثم عد يا محمد يا ابن ابراهيم الى قلب الصحراء . انضم الى قوة مدرعة اخرى بأجهزة دبابتك المسحورة. لكن الطائرات تنقض على الموقع كله بقنابل النابالم ، تتقوس المدافع كأعواد تحترق . يصبح الموقع كله جحيما . تجري لتوقظ سائق دبابتك . تجده نائما من تعب الغدو والرواح ، بلا نوم ، آمنا من طول الانتظار . لا يسمع الدوي ولا القصف ولا الصيحات . تضربه بلكمة ، وتجره ليبتعد . تعدوان معا ، وتنبطحان ، وتزحفان ، ثم تعدوان في سفح التل . وتنقض الطائرات غادية رائحة برشاشاتها . لكنك تنجو ، وينجو معك السائق ، وتربان هذا الشاب الذي ظل جالسا في دبابته ، كتمثال مجسد معذب للكارثة . وقد جف كالحطبة ، وتضاءل حجمه طولا وعرضا . عصرت الحرارة العالية ماءه . وتعودان وسط روائح البارود واحتراق الحديد والشحوم والوقود والاجساد » .

نجا محمد من مفاصة النفس الهادرة في صمت ، وزعق ثانية :

« لا . لن اقول لكم شيئا انتم تعرفونه . لن احدثكم عن الصدى ، واترك الصوت » .

وتوقف عاجزا عن التعبير . ماذا يريد ان يقول حقا ؟.. هتف بالكلمات التي واتته :

« اسمعوني صوتكم انتم يا أهل بلادي . صوت القوة التي واجهت الهكسوس ، وصوت تيمورلنك ، وشقت شمل جيوش نابليون المنتصرة دائما . اسمعوني معه صوت الغد ، والفجر الذي يغسل بآماله ونداه كل الجراح . جراحكم ، وجراحي .. »

وتوقف . ولم يقل شيئا آخر . انزل عصاه بجانبه ، لكن شعر ان الارض سمعته ، والمياه المتدفقة ، والاشجار والقرى البعيدة المترامية ، وارواح النيام التي لا تفغو حتى بالموت . تزحمه المشاعر ولا تسعفه الكلمات . تفرغرت عيناه بدموع عواطف متناقضة ، تصطخب في صدره. قفز من فوق الجدار ، وراح يعدو على الشاطيء الغربي .

انتبه لنفسه وهو يعدو . ينحني ويتقدم مسرعا ، وشعبة السنط بين يديه كالبندقية . كأنه يندفع ليطهر ارضا ، ويكسح عدوا من دياره . توقف . قفز ممسكا بغصن شجرة سنط . انفرست الاشواك في كفه . والتصق سائل صمغي بيده . لكن ، للحظة ، لم يعبأ . اخذ يتأرجح بيد واحدة كالذبيحة . لا . لم يذبح بعد . ولن يقدر احد على ذبحه . وخلفه كل هؤلاء الناس ، وتلك القرى ترك الغصن ، وهوى . اخذ يرقص ، وصنع يسراه في خصره كالقوس . ادار يمناه بشعبة السنط على جانبه ، وفوق رأسه ، وامام عينيه .. كالمروحة . تنتقل قدماه به مع ايقاع العصا . تغير النبض والايقاع في قلبه ، في اذنيه ، وفي ذرات ساعديه وصدره وقطع رقعة التحطيب ، واخذ يطعن بشعبة السنط عدوا غير منظور ، في قلب الليل . يقفز مع كل ضربة ، بقدمه اليسرى ، يعلو الايقاع ويعلو ، حتى يصبح كالنحل ، كالكرة ، كالسيف ، كالبرق والرعد ويرقص رقصة محارب قديم في غابة تمتلىء بالوحوش الكاسرة ، على دقات الطبول ، وانوار المشاعل ، يدور حول نفسه ، والعصا مشرعة ، تقطع الفراغ من حوله . تمزقه ، تملؤه ، وتدور الدنيا ، ويتوقف فجأة ، ويزعق بكل ما يملك من اوتار ، بكل ما في صدره من طاقة :

« روحوا لي يا هوه » .

ويسقط . وتحمل المياه والمساحات نداءه ، بعيدا ، بعيدا . لا يردد الصدى نداءه ، لكنه يسمع ، اصواتا تنبعث في داخله ، من قلب الليل ، من حول السواقي ، ومن بين المزارع . تزعق مجيبة من كل اتجاه :

« جاي يا ولد جاي »

ويبتسم ، ويغفو ، ويحلم : تحت ظل شجرة مدفع . هو في خندق على الجبهة ، صامت ، يبتسم ، يضرب ، ويضرب ، بلا توقف ، وتتجمع على جبينه ، مع كل حبة عرق ، قطرة ندى .

سليمان فياض

مزاجير الصمت

الحضور

تتساقط أقنعتي المشويّة
تتناثر .. ساعة تحضرني الذكرى ..
يتقلص في عينيّ البعد الثالث
يضرب أجفاني بعجين .. لم يخبز ..
تتمدّد أقبية اللحظات الخلفيّة

التجديف

اعطني تاجك ..
خذ تاجي .. قهرا ودماء ..
اين منه الشوك ؟
وانزل عن صليبك ..
فصليبي .. ملء جفن الشمس ..
ذلاً .. وانطفاء
واحتراقا في مرايا الترّهات ..
انزل الساعة .. لا تبطىء ..
والا فلماذا ؟..
انت في الأرض يسوع ..
وانا .. في النكران ؟..

الأمل

الطفل المقبل ورديُ الخدين ..
شفتاه نشيد أخضر
يتفتّح في قلبين ..
الطفل المقبل يضحك في العينين
تحرسه الأجفان النابتة ..
على الشطّين .

اللاذقية ـ فيصل خليل